

الاتجاه الواقعي في روايات نجيب الكيلاني

سيف الله تانترے *

إن الواقعية كلمة مشتقة من وقع أي حدث ومنه الواقع، فباعتبارها اللغوي هي كلمة قديمة حتى كانت توجد في زمن أفلاطون (Plato)، وأمّا الواقعية في المعنى الاصطلاحي فهي تعني معالجة المؤلف للأشياء والناس ومشاكلهم وفق ما حدث ووقع في الواقع. وكانت الواقعية في بداية أمرها بسيطة جدًا تقصد إلى وصف النفوس وتصوير الطبيعة والأحوال اليومية بطريقة صادقة وموضوعية. ويعتبر الكاتب الإنجليزي "دانيال ديفو" (Daniel-de-Foe) (١٦٥٩-١٧٣١م) أول من وجّه إلى الواقعية في رواياته، ومن أهم رواياته في هذا الصدد: "روبنسون كروزر" (١٧١٩م) و"يوميات سنة الوباء" (١٧٢٢م) و"كولونيل جاك" (١٧٢٣م) و"جولة في كل الجزر البريطانية العظمى" (١٨٢٤م) و"روكسانا" (١٧٢٤م) وغير ذلك. وإننا إذا نتحدث عن الواقعية في الأدب العربي فظهرت أول مرة في الأدب المصري في سنة ١٩٠٥م على يد "محمد لطفي جمعة" (١٨٨٦-١٩٥٣م) بحيث تأثر من رواية "البعث" (Resurrection) (١٨٩٩م) لتولستوي (Leo Tolstoy) (١٨٢٨-١٩١٠م) وحاول تمصيرها في روايته "وادي الهموم". غير أن محاولته تخل من عناصر الواقعية الرئيسية وعن سماتها أيضًا. وفي سنة ١٩٨٢م أصدر الدكتور نجيب الكيلاني (١٩٣١-١٩٩٥م) روايته "الظلّ الأسود" وصوّر فيها عن هموم المظلومين والمقهورين والمستضعفين من عامّة الناس وهي التي ما ألحّ إليه كثيرا أدب الكيلاني بعامة ورواياته بخاصة ونجد رواياته مملوءة بالطبقة الدنيا

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

المظلومة المقهورة المستضعفة بحيث أنه يمثل لب الرسالة الخلقية للواقعية الإسلامية، ويهتم بحياة الفلاحين في القرية المصريّة وما يجري لهم وتعبير عن بسطاء المدينة وما يعانونه كما يمثل ملامح استجابته للتوجيه الإسلامي بالاهتمام بأمور المسلمين الذي يترجم عنه في واقعيته الإسلامية ذات الرسالة الخلقية. وجدير بالذكر أن نجيب الكيلاني بذل جهدًا تنظيريًا مهمًا في هذا السياق للتعريف بمفهوم الواقعية كما يعرض د. الكيلاني المناقشة بعض القضايا التي تتعلق بالواقعية وتثير العديد من التساؤلات، سواء من المؤيدين للواقعية أو المعارضين لها مع إشارة لبعض الأدباء الواقعيين في العصر الحديث أمثال أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، مصطفى صادق الرافعي، أحمد محرم، يوسف إدريس، يوسف السباعي، نجيب محفوظ وغيرهم. ويقدم نماذج معقولة للأدب الواقعي كما ركز على الدعوة إلى الاهتمام باللغة الفصحى في الكتابة والتعبير بوصفها البيان الأدبي الأرقى للأسلوب. إن كفاح نجيب الكيلاني لتقديم الواقعية يمثل انعطافه كبيرة في مسيرة الاتجاه الواقعي ويعد د. الكيلاني إلى مجال الواقعية الإسلامية في الرواية نقلة أكثر تطورًا وعميقًا باعتبار أنه يواجه المجتمع بمشكلاته المرئية وغير المرئية مواجهة جادة ملتزمة، مع ما قد تجره عليه هذه المواجهة من متاعب شخصية واجتماعية تعود عليها منذ مطلع شبابه.

وقد اهتم د. نجيب الكيلاني بأسلوبه الروائي إلى الواقعية اهتمامًا كبيرًا بحيث يملك القدرة على أداء اللغوي الجيد كما يملك معجما غزيرًا يتيح له فرصة التعبير الدقيق والمتسامي عن مختلف المشاعر والأحاسيس والصور والمشاهد إذ تظل رواياته الواقعية وفيّة للقضايا الإنسانية الكبرى التي تعني الإنسان المسلم في حاضره ومستقبله، وتترفع في الوقت ذاته عن القضايا المبتذلة والرخصية التي تتسافل به أو تهبط إلى درك الحيوانية حيث تبحث عن

الإشباع الغريزي وحسب.

وعندما استعرضنا روايات د. نجيب الكيلاني يتضح لنا أن الرواية "النداء الخالد" (١٩٦٤م) من أهم روايات نجيب الكيلاني التي تتعلق بصورة خاصة للفلاحين المصريين حيث كان الاقطاع يسود الفلاح، فكان يعيش حياة القصور ويسرق خيرات أصحاب الأرض وكان هؤلاء الفلاحين يحيى حياة الفقر والحاجة ويعيش ويحترث، ويزرع نفس الأرض قبل أن يكون البدو بدوًا. ولقد توالى العصور عليه وتوالى الأمم عليه لكنه لبعده عن المدن والحضارة ولاعتصامه ببطون القرى ونائيا عن مهبّ العواصف السياسيّة والاجتماعية في العواصم حيث تقيم الأمم المغيرة عادة وتختلط الأجناس لم يستطع طول الزّمن ولا تقلباته أن تعيّر من نفسه شيئًا، فهو فلاح وله أصل من الأصول. وهكذا تكشف هذه الرواية عن مصريّة نجيب الكيلاني واعتزازه بها وبحثه عنها كما صرّح المؤلف في مقام: "فأهل مصر شعب أصيل عريق منذ ثمانية آلاف سنة وهم في وادي النيل يعرفون الزّراعة والفلاحة، ولهم قرى ومزارع فإنّ شعب يملك من القدرة ما يجعله قادراً على التطوّر والرّقيّ وهو شعب يعلم أشياء كثيرة، لكنّه يعلمها بقلبه ولا بعقله". غير أن هذه الرواية أعطت لمصر وأفرادها أملا بعد أن كانت الشعب المصري شطبت من قاموسه كما كانت مقاومة للفناء ومحاولة للهوض شطبت أيضًا. فالخييط الفكري الذي يربط أعمال نجيب الكيلاني هو هذا الشعب الذي ظل متحدا رغم الغزوات العديدة التي أجاد الدكتور الكيلاني تصويرها معطيا لنا صورة ناطقة عن الفلاحين المصريين ومشكلاتهم وقضاياهم المعينة.

وأما روايته "ليل وقضبان" (١٩٩٣م) فهي أوثق الارتباط بمشكلات المجتمع وقضاياها الاقتصادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية وخاصة مشكلات الرّيف التي اهتم بها الأديب اهتماما بالغا، والتزم الدكتور الكيلاني بمعالجة

المشكلات التي يعاني مجتمعه ولم يكن التزاما مفروضا وإنما كان التزاما حرًا نابغا عن أعماقه وذلك كأديب حساس لم يكن ليستطع أن يغض عينيه عما يجري في بيئته وفي الساحة العربيّة من الصراعات وأحداث خطيرة. وفي روايته "رحلة إلى الله" (١٩٨٧م) يتناول بالرمز والسخرية بعض عيوب المجتمع المصري في وقت كان هذا المجتمع غارقًا في فوضى الحزبية السياسيّة خاضعا لحكم الجهل الذي أتت منه هذه الأمة، فيمضي الكاتب في مختلف رواياته على هذا المنهج من النّقد والتسجيل والسخرية بعيوب هذه الأمة ويكشف فساد العلاقات الاجتماعيّة التي كانت سائدة وقت ذلك. وبكل ذلك لا مفرّ لنا من أن نعتبره كاتبًا اجتماعيًا واقعيًا كما تغلغل في زوايا المجتمع فصوّره وعرض عيوبه وأحسن تصويره، إذن هو أديب ينتمي إلى مذهب الحياة وفنان الحق يصوّر هذه الحياة بكل ما فيها من علاقات إنسانية وعيوب اجتماعية، وفي نفس الوقت إنّه يمرّ بالتجربيّة الوجدانيّة ويصور أدقّ معاني الحب والعواطف البشريّة. وعصارة القول تدور هذه الروايات حول القضايا الاجتماعيّة المختلفة التي يواجهها المجتمع الإنساني بعامّة والمجتمع العربي خاصة وإن البيئات والشخصيات المذكورة في هذه الروايات تنسب ظاهرة إلى المجتمع العربي، ولكن المواضيع والقضايا التي عولجت فيها تتعلق بالمجتمع العالم كله بدون فرق هو شرقي أم غربي، أو عربي أم عجمي، ولذا تجدر بدراسة عن هذه الروايات في أي ناحية من النواحي الموجودة، وتنبثق في معظم رواياته الروح الإسلاميّة والتوجهات الإلهية للقراء ونرى أنه يذهب بالقراء إلى الأخلاق الفاضلة والقيم الإسلاميّة. وجدير بالملاحظة أن الدكتور نجيب الكيلاني لا يذكر في رواياته الصور الرزيلة كما توجد في بعض مؤلفات غيره بل يتخذ أسلوبًا خاصًا لعرضها، ويذكر عبد الله صالح العريني عن ميزات نجيب الكيلاني:

"أولها: إبراز صورة الشر بشكل يجعل القارئ يحس بالنفور منه،

ويدعوه إلى كراهة ذلك العمل غير الخير والاشمئزاز منه.
وثانيها: أنه يعطى صور الشرّ ما يلائمها من حيث الوقوف الطويل
عندها، أو المرور السريع عليها.
وثالثها: أنه قد التزم مبدءا لا يحدد عنه وهو أن يجعل الغلبة على
الخير. فانتصار الخير على الشرّ يتضح في روايات الكاتب جميعها".

وبعد هذه الدراسة التي ترمى إلى إبراز ملامح الواقعية في ابداعات المؤلف
الروائية نستطيع أن نقول أن د. نجيب الكيلاني كان حلقة من سلسلة الكتاب
الذين دعوا إلى مبدء الالتزام بالأدب والفن، وسار عليه منذ بدايته، فكان ناقداً
وواقعيًا واشتراكيًا يلتزم بقضايا الطبقة المهمشة في المجتمع أمثال العمال
والفلاحين والفقراء، تتجلى في رواياته النزعة الإنسانية بكل مفاهيمها والتي
تلاحظ في الأوضاع المزرومة كما تتجلى روح عدم الاستسلام لليأس، يرصد
الدكتور الكيلاني من خلال إنتاجه الروائي تحولات المجتمع المصري بما فيه من
سلبيات وإيجابيات ومعظم معطياته الأدبية تنطق بقدرته الفائقة على تصوير
الأحوال السياسيّة والاجتماعية في مصر تصويرًا صادقًا رائعًا. وصرح نجيب
محفوظ عن واقعيته قائلا: "إن نجيب الكيلاني هو منظر حقيقي للأدب
الإسلامي الواقعي بحيث تشكل أعماله الروائية والقصصيّة معًا ملامح نظريّة
الأدبية الواقعية القوية التي غرزت دراساته حول آفاق الأدب الإسلامي".

وعصارة القول إن شخصيته لا تعد من الأدباء الذين ولجوا في مجال
الأدب لمجرد التذوق واللذة والاستماع، ولا من الذين يرون الأدب للأدب أو الفن
للفن ولكن من الذين اهتموا بأوضاع المجتمع وأحوال العالم والإنسان في أدبه،
ومن الذين استوعبوا دور الإنسان في الأرض كإنسان، ومن الذين يجهدون لأداء
مسئوليتهم في الحياة. ولذا نرى شخصية الدكتور نجيب الكيلاني عاش مع
المجتمع متدخلا بالقضايا الاجتماعية ومجتهدا لحلها ومرشدا إلى حلولها وهذا ما

نرى في رواياته.

الهوامش:

١. د. نجيب الكيلاني: تجربتي الذاتية في القصّة الإسلامية، ط: القاهرة، ص: ١٨-٢٠.
٢. د. نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، ط: لبنان، القاهرة، ص: ٢٥٢.
٣. د. نجيب الكيلاني: الظل الأسود، ط: دار الكتاب العربي مصر، ص: ٣٧-٢٠.
٤. د. نجيب الكيلاني: النداء الخالد، ط: مكتبة الصحوة، بيروت، ص: ٣٥-٣٦.
٥. د. نجيب الكيلاني: رحلة إلى الله، ط: مكتبة الصحوة للنشر والتوزيع، بيروت، ص: ١٢٠-١٣٥.
٦. د. حلمي محمّد القاعود: الرواية الإسلامية المعاصرة، ط: دار العلم والإيمان، بيروت، ص: ٨٨.
٧. د. حلمي محمّد القاعود: الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، ط: مكتبة العبيكان، مصر، ص: ١٩-٢٣.
٨. د. نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، ط: دار العلم للملايين، بيروت، ص: ١٨٠-١٨٢.
٩. د. عبد الله صالح العربي: الاتجاه الإسلامي في أعمال نجيب الكيلاني القصصية، ط: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، السعودية، ص: ١١-١٥.
١٠. عباس خضر: الواقعية في الأدب، ط: القاهرة، ص: ٩.
١١. نصر الدين دلاوي: القيم الإنسانية والجمالية في قصص نجيب الكيلاني، ط: جامعة وهران لبنان، ص: ٢١-٢٢.
١٢. ياسين الأيوبي: مذاهب الأدب، ط: بيروت، ص: ١١٢.
١٣. الدكتور صلاح الدين تالك: نجيب محفوظ والرواية الواقعية، ط: دلهي، الهند، ص: ٣٦-٣٨.
١٤. عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية، ط: دار المعارف القاهرة، ص: ١٨٢-١٩٠.
١٥. Hamdi Sakoot: The Egyptian novel & its main trends, Darul-Ma'arif, Cairo 1971.
١٦. Patrik Walton R: Realism & Romanticism in Fiction, USA 1962.
١٧. www.majles.alukah.net

* * *